العبور العظيم والعبور المضاد الساداتي للقاء العدو:

في جذور حلف العمالة والخراب الامريكي ـ الاسرائيلي ـ العربي

اديب ديمتري*

■ التحالف الذي دشن باجتماع القاهرة، وجمع القادة العرب الخليجيين بالاضافة الى مصر والاردن، بدعوة من وزيرة الخارجية الامريكية كوندوليزا رايس وقيادتها، ومشاركة ايهود اولمرت عن بعد وافيغدور ليبرمان اخيرا، هو الاعداد المبكر لهجمة جديدة وخطيرة، تخطط لها امريكا حاليا على طريق مشروعها الشرق الاوسط الجديد، وقبله والاكثر الحاحا اليوم هو اخراج امريكا وهي مقبلة على انتخابات التجديد في الكونغرس من ورطتها وهزيمتها في العراق، وللاعداد لحربها على ايران.

ولا شك ان اول فصول هذه الهجمة الجديدة هي المذبحة التي تجري حاليا في غزة والتي راح ضحيتها حتى كتابة هذه السطور 46 شهيدا ومئات الجرحى، وضرب مظاهرة نسائية خالصة بالرصاص الحي. واول انجازات هذا الحلف كان المناورات الامريكية العربية المشتركة في مياه الخليج. وتأتي معها مشاركة النظام المصري بارسال خمسة الاف او اقل لا فرق من قواته، حتى ولو كانوا من الأمن المركزي، لتشديد الحصار على غزة، الذي فرضته امريكا واسرائيل والاتحاد الاوروبي ونفذته مصر منذ البداية بالرغم من عدم مشروعيته. فلا يجوز ارسال مثل هذه القوة مهما كان نوعها عسكرية او امنية حسب ما تقضي به معاهدة السلام الاسرائيلية ـ المصرية الا بتنسيق مسبق بين الدولتين. وقد سبق لوزير الخارجية المصري ان انذر الفلسطينيين بأنهم سيندمون على رفضهم للوساطة المصرية في شأن الاسير الاسرائيلي ولا شك ان الملف الجديد هو الخاتمة السعيدة والتتويج للعملية الحياتية الكبرى التي بدأها السلف الاكبر لهؤلاء الرؤساء جميعا انور السادات، حين اعلن مبادرته المشؤومة بزيارة القدس في التاسع من تشرين الثاني (نوفمبر) 1977، ثم حط بطائرته في المدينة المقدسة وفي اعقابها كامب ديفيد في 19 ايلول (سبتمبر) 1998 ومعاهدة السلام في 26 اذار (مارس) 1979.

ثلاثون عاما او تكاد منذ الهبة الشعبية الكبرى في 18 و19 كانون الثاني (يناير) 1977 وسلسلة الخيانات التي اعقبتها والتي لا زالت تتلاحق الى يومنا. شهدت فيها مصر وعالمها العربي ابواب الجحيم وهي تفتح، والكوارث والخراب الذي لم ير مثيلا له منذ غزوات المغول وسقوط بغداد في القرن الثالث عشر، كما لم يعرف شعب مصر نظاما مثل نظام مبارك واسرته والعصابات التي يحكم من خلالها والحضيض الذي انحدرت اليه.

وما يجري بالداخل حاليا ومنذ ولاية مبارك في اطار هذه الخيانات هو الأخطر. تصفية اي قوة او مركز للمقاومة ومحوها، وكانت هذه اولى مهام الرئيس التي انكب على انجازها، في شعب معروف بهباته الثورية التلقائية وغير التلقائية، وكان هذا اول شروط التحول من النظام الناصري الوطني التقدمي الى التبعية لامريكا وللغرب الامبريالي عموما. وجاء الصلح مع اسرائيل في هذا الاطار وصولا الى هذا الهدف. واول الاسلحة في هذا الشأن، كان ولا يزال منذ الاحتلال البريطاني ونظام فاروق هو تجريد مصر وشعبها من حقوقه الديموقراطية والدستورية التي اكتسبها بنضاله التاريخي منذ ثورة عرابي، ولكن نظام كامب ديفيد، نظام السادات مبارك مضى الى ابعد من ذلك في الداخل. فالطاغية منذ توليه، فضلا عن تمسكه الشديد بالاحكام العرفية طوال الخمسة والعشرين عاما من حكمه، ومحاولته ان يلبس قفازا حريريا في نفس الوقت، وهو يمارس التعذيب وعلى مستوى دولي، يعمل نظامه بدأب على تمزيق وتفتيت البنية الاجتماعية والمجتمعية، بالافقار المتزايد الى حد العوز حتى لجماهير الطبقة الوسطى، وتعميق الفروق الاجتماعية مع اعلاء قيم «اللياقة الاجتماعية» بما يؤدي الى اضعاف الانتماء الوطني، فضلا عن دور المدارس والجامعات الاجنبية التي تتكاثر كالفطر، ومن كل نوع ودون رقابة.

يجري ذلك كله على اساس تصفية كل مكتسبات الثورة من الصناعة والزراعة والثقافة والتعليم، وخلق كل الظروف التي تزكى صعود الاصولية السلفية والظلامية والارهاب والتي يستخدمها النظام كسلاح للتخويف من البديل وتثبيت قواعد الحكم البوليسي الأمني.

والنظام بهذه الممارسات، فضلا عن التدني والانحطاط الذي لا تخطئه عين في كافة المجالات، أفقد مصر دورها التاريخي، واخرجها من معادلات الصراع في المنطقة، وحول اقطارها وشعوبها ريشة في مهب الاعصار الامبريالي، لاشد الامبرياليات توحشا في التاريخ، الامبريالية الامريكية واداتها العنصرية اسرائيل. وهذا التحول له تاريخ، والتاريخ اقوى اسلحة الوعي،

ويأتي تاريخ كامب ديفيد ومعاهدة السلام الاسرائيلية ـ المصرية في المقدمة من القضايا الراهنة فهي العلة المباشرة لكل حاضر عالمنا العربي.

بدأ السادات مؤسس النظام اتصالاته بامريكا بعد انقلابه في 15 ايار (مايو) 1971 بفتح قناة سرية في نيسان (ابريل) 1972 على ما يروي كيسنجر في مذكراته (ص 1293)، وعلى ان تكون القناة رئاسية مباشرة من وراء ظهر وزارة الخارجية المصرية. وعبرت رسالة له في ايلول (سبتمبر) من نفس العام حسب رد كيسنجر عن رغبة مصر في فتح قناة السويس المغلقة منذ عدوان 1967 للملاحة الدولية. اي انه بدأ بالقاء سلاحه العالمي الرئيسي، وكل الاراضي العربية لا زالت محتلة بيد العدو.

وفي لقاء بين كيسنجر والسفراء العرب المعتمدين في واشنطن في مناسبة العام الجديد 1973، ولم يحضرها السفير المصري بالطبع لقطع العلاقات، اعلن كيسنجر للسفراء: «انه حتى ولو كان ساحرا، فانه لا يستطيع ان يتدخل الا اذا كانت الامور ساخنة» ولم يكن التصريح في الحقيقة سوى دعوة لمعركة ما او حتى للحرب، ليستطيع فعل شيء. وابلغ السفير ملكه فيصل ليبلغه للسادات. واشار فيصل على السادات بضرورة الحرب على ان تكون محدودة حتى لا تزعج الامريكيين. (السادات «فرعون مصر» لمراسل «الفيغارو» في مصر في ذلك الحين) ص 404.

اما السادات الذي كان على قناعة ان 99 % من اوراق اللعبة بأيدي امريكا، وان الامريكيين وحدهم هم الذين سيخرجون مصر من ورطتها السياسية والاقتصادية، فقد كانت موافقته جاهزة. ولكن السادات الذي كان يخطط للسلام مع اسرائيل، من أجل الوصول الى امريكا، اخفى فكرته عن الملك، لان فيصل ما كان ليقبل بها وامنيته ان يصلي في القدس.

فالسادات حين اعلن الحرب، كان في ذهنه انها حرب محدودة لمجرد التحريك، ولكن العبور والبطولة الفذة التي اظهرها الضباط والجنود، والنصر العظيم الذي تحقق والذي هز اسرائيل والعالم غير الموازين. ومع ذلك، وخلال الحرب، ورغم وجود هيئة الاركان بقيادة الشاذلي، فقد كان السادات يصر على ان يقود الحرب بطريقته، ضاربا عرض الحائط برأي القيادة العليا متحديا كل منطق عسكري («السادات» ديفيد هيرست ص 159).

وفي هذه الاثناء فتح الاسرائيليون الثغرة، وكسبوا معركتها في 18 تشرين الاول (اكتوبر)، وعبر شارون وبات بجيشه على ابواب السويس، وعلى رأس الطريق المباشر الى القاهرة. ومع ذلك ظل النظام مصرا على اخفاء الحقيقة، ماضيا في اكاذيبه، على انه احرز النصر، بينما استنجد بالقوة العظمى امريكا تحت اسم الامم المتحدة.

ويعلق ديفيد هيرست صاحب الكتاب المذكور والصحافي المشهور، ان السادات لو كشف الحقيقة، وقد هبت السويس المحاصرة بالفعل للمقاومة واوقف شعب السويس دبابات شارون، لتغيرت الامور، فقد كان من المستحيل ان يجرؤ شارون على التقدم الى القاهرة وهو يعلم انه وجيشه سيغرق في بحور شعب مصر. كما حذرت الصحافة الوطنية حينها من قبول وقف اطلاق النار طالما اسرائيل لم تنسحب من كل الارض. والعرب كانت فرصتهم اكبر في اطالة الحرب والمقاومة. ولكن السادات لجأ؟ للتهدئة، وبعد لجوئه الى مجلس الامن، امر بفتح مراكز وهمية للمقاومة الشعبية، واعد معسكرات للتدريب الكاذب بين القاهرة والسويس نقل اليها الشباب (المرجع السابق ص 166).

وعادت شكوك الناس الذين لم يكونوا يثقون في السادات اصلا قبل العبور في اجواء «اللاحرب واللاسلم» وعام «الضباب» وذاعت من جديد الاقوال بان الحرب مسرحية غرضها العبور الى امريكا وفرض السلام الامريكي.

هنا يدخل كيسنجر خشبة المسرح، فقد وصلته رسالة من السادات تقول: «ليس في نيتنا ان نعمق المواجهة او نوسعها» ويستطرد كيسنجر في مذكراته (ص 482) «العبارة تعني ان مصر لن تواصل هجومها وعملياتها العسكرية ابعد من الارض التي كسبتها» ولكن السادات وضع شروطه، ان تنسحب اسرائيل من الاراضي العربية المحتلة «وادركت من سياق الرسالة انه غير جاد في شروطه كنت انظر اليه كممثل، والآن فهمت ان طرد الخبراء السوفييت خطوة نحونا، وانه يحاول ان يجعل من امريكا وسيطا».

وفي اول لقاء لهما كانت الحب من اول نظرة «صديقي هنري» ليس صديقي بل اخي. تبادلا المجاملات وكلاهما منافق كما يقول ديفيد هرست. وكيسنجر ذكر السادات ان الاتحاد السوفييتي اذا كان في مقدوره ان يساعد العرب، فان الولايات المتحدة وحدها بنفوذها المنفرد في اسرائيل، هي التي تملك الوسائل والادوات لتحقيق السلام. وكان السادات كله تهيؤ لقبول هذا الكلام، فقد كانت عقيدته سلفا.

كانت الصدمة البترولية بقرار فيصل بالحظر البترولي قد هزت الغرب، واجبرته على الاذعان، ودخل كيسنجر في هذه اللحظة ليقنع السادات انه يمثل حقيقة امريكا جديدة، امريكا التي دون ان تتخلى عن علاقتها الخاصة باسرائيل فانها على استعداد لان تتعاطف ايضا اكثر مع القضية المصرية. وان امريكا على استعداد للالتقاء بالعرب في منتصف الطريق في مقابل الاعتراف باسرائيل وحقها في الوجود كدولة مستقلة. واوحى للسادات ان العرب بقبول هذا العرض فان اسرائيل في المقابل على استعداد للجلاء عن الارض المحتلة، واقامة نوع من النظام الجديد الذي يرد الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني. واوضح كيسنجر وجهة نظره في طريقة الحل: السلام عملية يمكن الوصول اليها على مدى مراحل متطورة، بسلسلة من الاتفاقات الجزئية او المرحلية تقود الى الحل النهائي. واساس التقدم في هذا السبيل هو «الأمن» لاسرائيل في مقابل «السيادة» للعرب بمعنى الارض.

كان السادات في ظروف الثغرة بالطبع، ومع تطلعاته الدائمة نحو امريكا كان هو السباق للاقتناع والقبول بوجهة نظر كيسنجر هذه. فقد قام بانقلابه سنة 1971 املا في هذه النهاية، وكذلك جاء طرده للخبراء السوفييت.

ومع وصول كيسنجر الى القاهرة لاول مرة في تشرين الثاني (نوفمبر) 1973 بدأت مسيرة العبور المضاد الى امريكا والغرب وبقية القضية معروفة. تحرك مكوكي لكيسنجر بين القاهرة وتل ابيب على نهج الخطوة خطوة، ادى الى توقيع اتفاقية فصل القوات الاولى في 18 كانون الثاني (يناير) 1974 عند الكيلو 101، اعقبتها زيارة نيكسون واستقباله الشعبي الذي لا ينسى في مصر من 12 حزيران (يونيو) 1974 ثم تنازل جديد للسادات «لتشجيع كيسنجر» وعد منه بفتح القناة وعودة المهجرين الى مدن القناة، وهو الذي اعلن من قبل انها لن تفتح الا بزوال الاحتلال عن كل الارض العربية. وتم فتحها في 5 حزيران (يونيو) 1975 في ذكرى الهزيمة وفي ايلول (سبتمبر) 1975 وقعت اتفاقية فصل القوات الثانية ورفضها الجمسي ولكن القائد الاعلى امر!

في كل خطوة من هذه الخطوات جاء التنازل وراء التنازل والخيانة وراء الخيانة. بدأت بشروطه المعلنة لا وقف للحرب الا بالانسحاب من كل الاراضي العربية المحتلة، وحل عادل لقضية الشعب الفلسطيني واستعادة كامل حقوقه المغتصبة، ثم وافق على استبعاد الفلسطينيين من مؤتمر جنيف كشرط مسبق لاسرائيل، وخلع علم فلسطين في مؤتمر القاهرة عندما طلب استبعاده ممثل اسرائيل. وقبل اعلان فتح القناة باربعة ايام اكد ان مصر لن تفتح القناة للملاحة سوى في اطار اتفاقية نهائية. وفي وثيقة سرية ابلغها كيسنجر لاسرائيل ان السادات وعده بتطهير القناة واعادة بناء المدن واستئناف النشاطات السلمية اي استبعاد القتال نهائيا.

ومن هذا الصنف من الاكاذيب وعد من السادات لكيسنجر سرا بعدم التدخل في حالة مهاجمة اسرائيل لسورية، وفي العلن مطالبته ببذل كل الجهود لتتقدم المفاوضات بين سورية واسرائيل. ورغم تحريضات كيسنجر لاسرائيل ومدها بالسلاح علنا، فقد ادهش الصحافيين بتصريحه «برغم كل شيء، فانني استطيع ان اقول ان موقف امريكا فيما يتعلق باقامة السلام موقف بناء»!!

وتكرر نفس السيناريو بعد ذلك بخمس سنوات في كامب ديفيد، سقطت شروطه قطعة قطعة، ستربتيز على حد تعبير ديفيد هيرش، وبين الفاصل والفاصل اكاذيب وخيانات.

ويقدم لنا نفس المؤلف صورة هزلية للدكتاتور وممارساته فهو يقرر وقراراته دون ادنى قيد عليها، بعد اجتماعاته المنفردة بكسينجر في الحجرات او بين اشجار المانجو بحديقة الفندق، بينما وزير خارجيته ومستشاروه يستمتعون بشمس اسوان الدافئة، بالتراس يرقبون الشاطئ الغربي المقابل على النيل!

كانت امريكا والغرب هي حلمه الكبير ومناه. فالغرب في رؤاه مصدر الخبز والنماء والرخاء. ولكن السادات وهو يغامر للوصول الى الهدف سار على عكس ما يريد. فدبلوماسي الصلح الانفرادي لاستعادة سيناء فقط على غير ما يعلن، وعلى الكذب والخداع، وعقد الصفقات السرية، بددت قوة العرب وعزلته عنهم. لقد القى بمصادر قوته الواحدة بعد الاخرى: القناة والبترول والصمود فعاد بعد حرب مجيدة الى حالة «اللاحرب واللاسلم» وفقدت مصر مكانتها وقيادتها.

لم يكن السادات بقرار الحرب بطلا، بل مكرها اخاك لا بطل، بدعوة كيسنجر له ولزملائه العرب لفعل يحرك، ويفتح قنوات سرية مع الامريكيين قبلها في 1972 وعرض الصلح المرحلي وكلها دون جدوى. كما انه حارب بجيش عبد الناصر الذي كان قد اكتمل اعداده او كاد قبل وفاته، كما ان عقيدة هذا الجيش كانت غير عقيدته. فضلا عن ان احداث 1972 عام الضباب وصعود حركات اليسار الناصري والماركسي والمعارضة الوطنية التي اصبحت تهدد نظامه بعد ان افتضح، اجبرته على اتخاذ هذا القرار.

والاعتقاد الشائع ان عبقرية شارون في افتعال الثغرة، وعبوره القنال بجيشه الى الضفة الشرقية، وحصاره للجيش الثالث هي التي سلبت النصر العظيم الذي حققه الابطال الذين عبروا، والحقيقة كانت غير ذلك، فالهزيمة سياسية في الاساس. بدأت برفض السادات التعبئة الشعبية كما عبأها عبد الناصر. اوقف شعب السويس البطل الزحف، ولم يكن شارون ليجرؤ على التقدم في عمق الشعب المصري. السادات كان يخشى الشعب، ونظامه بطبيعته معاد للجماهير ويحتقرها. ولا يزال مبارك على نهجه يسير.

والبعض يحسب للسادات وطنيته ومشاركته في الكفاح الوطني ضد الانكليز، وكان يقتل جنودهم. ولكن ينبغي ان نميز بين القومية والوطنية التقدمية والمستنيرة، والوطنية الشوفينية المتعصبة والضيقة الرجعية. الاولى تعبر عن قوى الامة والشعب الصاعدة، دعم جماهيره الواسعة، والثانية هابطة هي وطنية الطبقات المستغلة. وطنيته هذه قادته الى التعاون مع الغازي، وبعدها انضم الى الحرس الحديدي، حرس الملك، وهي نفسها التي تقود مبارك الى التحالف العلني مع امريكا واسرائيل.

الهزيمة والتسليم التي قادت النظام الى كامب ديفيد ومعاهدة السلام، والتي تدفع به اليوم الى التعاون والتنسيق والتحالف مع الامريكيين والاسرائيليين، تنبع من طبيعة النظام نفسه وجذوره الاجتماعية والذي بدأ بانقلاب ايار (مايو) الساداتي. صنعته فئات فاسدة داخل النظام الناصري. وهي التي نهبت القطاع العام وخربته، وتحالفت معها الطبقات الرجعية القديمة قبل الثورة. وهذه وتلك استغلت اخطاء النظام الناصري ونواقصه، لتقفز على السلطة من جديد.

مثلها خير تمثيل قطبان عثمان احمد عثمان الذي اغتنى في عصر عبد الناصر وسيد مرعي الاقطاعي القديم. وهي نفسها التي تحتشد اليوم قياداتها داخل امانة السياسات تحت زعامة جمال مبارك. نهجها الليبرالية الجديدة المدمرة والانفتاح سداح مداح. ومهمتها تصفية الصناعة الوطنية والزراعة والخدمات، والبنوك وبيعها للاجنبي. وهي طبقات وفئات طفيلية مافيوية غير منتجة، غير رأسمالية طلعت حرب البناءة. رأسمالية العولمة المتوحشة. والاصولية السلفية هي افرازها الطبيعي ووصفوها. وهذه ليست المسؤول الاول عن الظلامية والانحدار والخراب، بل المسؤول هو النظام وسياساته في المحل الاول، وهي التي تخلقها.

نظام كامب ديفيد السادات مبارك يفتقد الشرعية تماما، لان الشرعية، شرعية اي نظام تستمد من الشعب وارادته الحرة. السادات جاء بانقلاب غير شرعي على نظام وطني تقدمي، ومبارك استمد شرعيته من صناديق الانتخاب المزيفة. اقتلاع هذا النظام واسقاطه، وتصفية طبقاته وفئاته، كما صفى الاقطاع في السابق اصبحت ضرورة. والتغيير الجذري طريقه الوعي والتعبئة والحشد، الطريق الديمقراطي لا بديل.

* كاتب من مصر يقيم في باريس

من أجلك يا علف!

عبد الستار قاسم*

■ من أجلك يا فلسطين تهون النفوس، ومن أجلك يا فلسطين نقدم الدماء، ومن أجلك يهون علينا ألم الاعتقال والتعذيب، من أجلك لا ننحني أمام قلع الشجر وهدم البيوت ومصادرة الأرض. من أجلك سنبقى صامدين صابرين مثابرين مرابطين مجاهدين مناضلين متحملين آلام الجوع والحرمان والاختباء في ثنايا الجبال وقيعان الوديان، ومصممين على ألا تلين لنا قناة، ألا تهزمنا النائبات وألا تفت من عضدنا المصائب والنكبات.

هذا شعر أو شعارات كانت صالحة في الوقت «الوساع»، أما عندما تضيق الأمور ويشتد خناق الأعداء على أمعدتنا، فلا بد من اجازة لكل الأكاذيب التي سقناها على المواطنين البسطاء ليصبح شعارنا «من أجلك يا علف». من أجل الفتات التي يقدمها أهل الغرب لتملأ بطوننا سحتا، نحن نريد أن نكون واقعيين، ونريد للحكومة أن تسقط لأننا أخطأنا عندما انتخبنا المجلس الذي منحها الثقة، ونريد أن نقطع أصابعنا ندما على سلوكنا الانتخابي المملوء بالكبرياء والاستقلالية، كان علينا أن نكون أنذالا فننتخب وفق رغبات الممولين والاسرائيليين. من أجل العلف تهون الكرامة وتهون الكبرياء، ومن أجله تهون الأوطان ويهون شجر الزيتون وكرم العنب وساحات فلسطين. أي صمود هذا الذي يقف في وجه العلف، وأي مستقبل ينتظرنا بأمعاء لا تمتلئ من خيرات اسرائيل وأمريكا؟ لا مستقبل بدون علف، ولا مذلة بدون علف، ولا تهجير للأجيال بدون علف، ولا تنازل عن الحقوق بدون علف. يحيا العلف حرا وتحيا أمعاء العرب موئلا له.

نحن بامكاننا أن نشمر عن سواعدنا وننتج، وبامكاننا أن نطور برنامج تكافل وتضامن، وبامكاننا أن نقلص من استهلاكنا ونكتفي بالقليل. بامكان من يحصلون على راتب الآن تقاسم الراتب مع آخرين، وبامكاننا أن نتخلى عن كثير من البضائع الاسرائيلية ولا نشتريها، وبامكاننا اعادة ترتيب أوضاعنا المالية، وبامكاننا أن نشجع منتوجاتنا الوطنية، لكننا حقيقة لا نريد ذلك الآن لأن الوقت غير مناسب، ولم نستكمل استراتيجيتنا بعد. تقوم استراتيجيتنا على استنزاف الأعداء من أمريكيين وأوروبيين واسرائيليين ماليا لكي نقلص من قدراتهم على تصنيع الأسلحة التي يحاربوننا بها. عندما نشكل عليهم عبئا ماليا ونحن نوهمهم بأننا نقبل طروحاتهم السياسية نكون قد أضعفناهم وخدعناهم. هم الآن واهمون ولا يدركون عبقريتنا في البحث عن علف من جيوبهم، لكننا سنفقرهم وسنهدم ميزانياتهم وسيعلنون افلاسهم. الآن وبعد أن نكون قد أنجزنا مهماتنا، نكشر عن أنيابنا فنغرسها بهم ونصرعهم، ونطردهم من فلسطين بخطة جهنمية لا تستهدي اليها الأباليس.

دائما نجحت خططنا ومنذ أن بدأت الثورة. أوهمنا الناس بأن التحرير قاب قوسين أو أدنى، وقلنا لهم ان الدولة الفلسطينية بقدسها الشريف ستقوم، واللاجئين سيعودون، والمستوطنات ستنهار وتغلق أبوابها، والأموال ستنهال علينا من كل حدب وصوب. صدقنا الناس وصفقوا لنا، فأخذنا وقتنا في سرقة الأموال وجمع الثروات وتثبيت أقدام اسرائيل وتمزيق المجتمع اجتماعيا وأخلاقيا، وتحويل الشعب الى جمهور من المتسولين الذين يرون العلف أهم بكثير من ارادتهم السياسية. لقد حولنا فلسطين الى رغيف، أو الى كيس طحين، أو ربما علبة أسبرين. المهم أن تلك التي كنا نتغنى بها قد أخذت اجازة الآن لصالح معلبات السردين.

لكننا من أجل راحة الشعب وطمأنينته، سنطالب بأن يكون لكل مواطن مذود. (المكان الذي يوضع فيه العلف للدواب) لا يلذ العلف ولا يطيب الا بمدود، ولا يحلو أكله الا على أربع.

خزاكم الله أيها الأنذال الذين لا ترون لقمة الخبز الا من جيوب أعداء الله ورسوله، وأعداء أمة العرب والمسلمين والفلسطينيين.

الشعوب العظيمة تبحث عن حلول ذاتية خلاقة لكي ترتقي عظمتها فتحافظ على كرامتها وعزتها، وتورث الأجيال الاباء وعزة النفس، وتبقى أبدا مضرب الأمثال بين الأمم الخالدة. الشعوب المهترئة هي التي يطيب لها النوم والتواكل والتوسل والتسول، وهي التي لا تأكل من عرق جبينها، ولا تشمر عن سواعدها، ولا تصبر على جوع من أجل دفع الظلم والضيم. أنتم تهوون بالشعب الفلسطيني الى القاع، الى الحضيض الذي تضيع في أوحاله التضحيات والدماء الزكية والنفوس الطاهرة والدموع الدافئة والأنات الغالية التي صدحت في معارج السماء.

أيها الناس، دعونا نفكر في كيف نساعد أنفسنا للخروج من مآزقنا. لا تظنوا أن سقوط الحكومة أو استقالتها أو غيابها ستأتي علينا بغير الويلات المصاحبة للتنازل عن ارادتنا السياسية. أيها الناس، لا ينفعنا الاعتماد على الآخرين الأعداء لأنهم الآن قد عرفوا أننا نركع، بل نسجد، بل ننهار، أمام المال.

لا حل لمشاكلنا الا بالجلوس معا لنفكر ماذا علينا أن نصنع من أجل أن نشل الحصار ونخيب الأعداء، ونردهم على أعقابهم خاسرين. اذا كنا شعبا عظيما فلا حل الا أن ينظر كبيرنا الى صغيرنا وثرينا الى فقيرنا وقوينا الى ضعيفنا. أما الحكومة فعليها أن تتصرف كحكومة تقدم المبادرات والبرامج والأفكار، وعليها أن تحشد الناس جميعا بدل أن تبقى متقوقعة لاهثة وراء من لا يقدرون معنى الوحدة ولا يعرفون. معنى الاعتماد على الذات.

نحن بامكاننا أن نجتاز الامتحان فقط اذا قررنا أن نكون مع أنفسنا. أتي علينا بغير الويلات المتمثلة في التنازل.

* كاتب من فلسطين

الحكم على صدام تعبير عن المأزق الامريكي في العراق

امير سعيد*

■ طلب «المندوب السامي الامريكي» خليل زاده قبل ايام من الحكومة العراقية تحديد موعد لانهاء نشاطات المقاومة، وايقاف نزيف الدم الامريكي في العراق، لكنه ـ للامانة ـ لم يقرنها بموعد انتخابات الرئاسية الامريكية بعد عامين!

على اية حال، فقد تم للادارة الامريكية الجمهورية مراد ثمين ـ في ظنها ـ بالحكم على الرئيس العراقي صدام حسين بالاعدام شنقاً قبل يومين اثنين من توجه الناخبين الامريكيين لمراكز الاقتراع للتجديد النصفي للكونغرس، وهو ما يتوقع ان يكون له بعض الاثر فيما يخص تلك الانتخابات.

ومسألة الربط بين الحكم على الرئيس العراقي والانتخابات الامريكية هي تهمة ينأى عنها البيت الابيض والنظام العراقي، مع ان كلاهما لا يكاد يجد مبرراً لهذا التزامن المريب، وقد كان طبيعياً الا تحشر المحكمة الاستثنائية نفسها في زاوية التناغم مع رغبة حزب امريكي في التشبث بالورقة الصدامية في المعركة الانتخابية النيابية، لكنها فضلت ان تقف في مكان يلقي عليها اعباء ينوء بحملها القضاء النزيه، كما ان الحكومة العراقية لم تستطع تسويق تشديد قبضتها الامنية سوى على انه جاء للحد من «فرحة» العراقيين بالحكم (الذي من المفروض انها لم تكن تعرفه!)، بيد اننا لا نكاد نفهم من هذا كله، لماذا تستكثر الحكومة العراقية مظاهر الفرح في يوم عيد لهم، بوسعه ان يخرجهم من ديمومة الاحزان التي لم تعطهم هدنة في يوم من الايام، ان كان هذا حقيقة ما يعتقده النظام العراقي؟!

الآن من حق العراقيين ان يفرحوا وينزلوا الى الشوارع منتشين بالحكم الامريكي العادل ممتنين لرجاله الذين اصدروه، فلماذا في هذه اللحظة التاريخية تقتل الحكومة العراقية فرحتهم؟!!

ولماذا تضرب في مدنهم وقراهم حظر التجوال ان كان هذا هو ما يبهج بلاد الرافدين؟! وهل تراهم اهالي المحافظات «الوسطية» هم أكثر «تطرفاً» في فرحهم من الجنوبيين او الشماليين، واقل منهم تحضراً حتى يحرموا من مشاركة اخوانهم فرحتهم بذهاب اللون الاحمر من خريطة العراق مع الحكم باعدام صدام؟!

انها في الحقيقة احجية لا تحلها الا كلمات اقل دبلوماسية من تلك، تتعلق برغبة الحكومة العراقية اليمينية التي تحالف نظيرتها الامريكية اليمينية ايضاً في عدم تكدير اجواء الانتخابات الامريكية بأي عمليات مقاومة فوق العادة في المثلث السني فاختارته لتشديد قبضتها عليه في وقت لا يريد فيها المحافظون الجدد الامريكيون التسليم بهزيمتهم العسكرية والسياسية والاقتصادية والاخلاقية والقانونية في العراق.

ولكي نقترب اكثر من الحقيقة، لنذهب الى اليومين الاخيرين من الانتخابات الاسبانية الرئاسية الاخيرة التي اطاحت بحليف الولايات المتحدة الامريكية اثنار واحلت ثاباتيرو بدلاً منه بعد ان قلبت عملية قطارات مدريد الطاولة في وجه اليمينيين الاسبان، وبدا ان اللهاث الاسباني خلف العام سام لم يجلب للبلاد الا الدخول في حزام «الارهاب» من دون ان يمنح الاسبان ايا من مزايا هذه الشراكة، او لنعد بالذاكرة الى الانتخابات الرئاسية الامريكية السابقة التي اطل قبل ساعات من اجرائها زعيم القاعدة فدخل من باب واسع في مساجلة ترجيحية اخيرة بين المرشحين الرئاسيين بوش وكيري، واذا كانت الذاكرة عيية فلا اقرب من اجابة الرئيس الامريكي على سؤال في مؤتمر صحافي الاسبوع قبل الماضي في واشنطن حول ما اذا كان العراق يعد المحور الاهم في المعركة الانتخابية، والتي انحرف الرئيس معها بالاجابة الى تحقيق الأمن بصفة عامة لا العراق (كنقطة ضعف كبيرة لادارته)، لكنه لما عجز عن وقف الانتقادات الديمقراطية في الايام الاخيرة ارتأى العودة الى العراق ولكن من بوابة قفص صدام حسين. هذا القفص الذي بدا انه ورقة قدر الرئيس الامريكي اهميتها وسعى الى توظيفها كورقة جوكر تلقى في اللحظة الاخيرة.

وان جاز لنا ان نحترم عقل الشعب الامريكي؛ فاننا سنضعه الآن بين خيارين، احدهما هو ان حكماً كهذا صدر مؤقتاً ومبرمجاً على النحو الذي رأيناه، من شأنه ان يضعف ثقة الناخب الامريكي في رئيسه لا ان يقويها، فالحكم قد صدر مرتجلاً من جهة، يفتقد الى ابسط معايير العدالة، كما انه قد خرج في توقيت مريب يهدف الى التاثير على نتائج الانتخابات بما لا يمكن تفسيره سوى انه يستخف بعقل الشعب الامريكي وقدرته على التمييز.

اما الخيار الآخر، فهو يخص التركيبة النفسية للشعب الامريكي، وهو ان عدم التفاته لكل الحيثيات السابقة واهتمامه فقط بالحكم لا بمبرراته وتحقيق مبدأ المحاكمة العادلة، ومن ثم اعتباره هذا انجازاً يستاهل ان يطوق راس نظامه الامريكي بالورود، ليس له الا معنى التعصب الاعمى المفعم بثقافة الكاوبوي وادارة المسدس حول زناد المسدس واصبع القتل، دونما اكتراث بالمآل القيمي لـ«الحضارة» الغربية، ومن ثم فهو من ثم حكم بالاعدام على قيادة الولايات المتحدة للعالم.. وهذا كله اذا ما نحن احترمنا هذا الوجدان الامريكي، واعتبرنا الامريكيين شعباً قد نال اخيراً حريته من ربقة الميديا الامريكية، وامتعض من طرد وزير الدفاع الامريكي الاسبق ومحامي صدام من المحاكمة على نحو يجرح الشعور الوطني الامريكي..

الحاصل ان النطق بالحكم الآن لم يكن بريئاً من ملابسات انتخابية امريكية، وهو جاء في الحقيقة ليعبر عن المأزق الامريكي في العراق لا ليهيل التراب عليه، فثمة اكثر من دافع للاعتقاد بحرج الادارة الامريكية وهي تواجه ناخباً امريكياً معنياً بفاتورة الحرب الامريكية على العراق على الاقل من الناحية الاقتصادية، وبشرى الرئيس الامريكي لشعبه بالحكم على الصدام او التخلص منه ستدحضها احصاءات تقدر عدد القتلى في العراق بنحو 665 الفاً من العراقيين ونحو 15 الفاً من الامريكيين قضوا من اجل تحقيق هدف قتل صدام دون محاكمة او بمحاكمة شكلية، فيما تراجعت كل مكتسبات ومبررات الحرب الاخرى او تلاشت، في حين كان يمكن للاستخبارات الامريكية ان تحقق مثل هذا الهدف دون هذه الكلفة الباهظة.

كما وان الاحتفاء بالحكم على الرئيس العراقي بالاعدام على نحو يرى المراقبون الامريكيون انه مؤثر على الانتخابات الامريكية يعطي للرجل زخماً اضافياً يبقيه رقماً صعباً في المعادلة العراقية المتذبذبة، وبالعكس ينتقص من «انجاز» الامريكيين المذعورين من ردة الفعل الشعبية، وان ظلت حبيسة مناطق معينة شاسعة لم تمسها حظوظ الديمقراطية الامريكية في العراق!!

وعطفاً على ذلك، يكمن حرج الامريكيين من ثبات الرئيس العراقي صدام حسين سواء عند الاستماع للحكم الصادر بحقه او اثناء المحاكمة في ان من شأن ذلك ان يزيد من صعوبة التعامل معه مستقبلاً، فقد حشر الامريكيين في زاوية شديدة الضيق، لا في الداخل الامريكي بشكل مباشر، وانما في الخارج العراقي او في المحيط الاوسع العربي، الذي قد ينظر اليه حال اعدامه كـ«شهيد»، وفي حال الانتظار كمناضل قوي الشكيمة والمراس.

واذا ما نظرنا الى حال العديد من الشخصيات ذات التأثير خارج السجون في العالم، عادة ما نجد سجانيها متريثين في تنفيذ حكم الاعدام ضدها ان كان صادراً بحقها، لعدم خسرانها ورقة قد تحتاج اليها تفاوضياً مع مناصري تلك الشخصيات، ولذا نجد كثيرين محكومين بالاعدام في العالم من دون ان يتم تنفيذ الحكم لسنوات كمثل الزعيم الكردي التركي عبد الله اوجلان، وليس صدام حسين ببدعٍ من هؤلاء، لكنه وهو يشاركهم المصير ربما يخالفهم في الميديا التي صاحبت آخر لحظات ظهوره امام العالم، فالزعيم الكردي الشهير على سبيل المثال لم تخطئ النظرات دموعه وتوسلاته لخاطفيه ومحاكميه بالافراج عنه بعد الحكم عليه بالاعدام، وخلع معظم قناعاته الثورية على ابواب السجن وانقض على فكرة الثورة المسلحة في اول ايام سجنه، ودفع حزبه لتقديم التنازلات من اجل الافراج عنه، حتى اعلن حزبه (حزب العمال الكردستاني) وقف اطلاق النار من جانب واحد مع الحكومة التركية، ومع ذلك يظل الشعب الكردستاني حتى هذه اللحظة يذكر نضاله معه ـ مهما اتفقنا مع هذا النضال او اختلفنا ـ وهو الآن يجمع له 3 ملايين توقيع من اجل الافراج عنه، اما صدام حسين فهو رغم تشابه المصير، لم يقدم ايا من تلك التنازلات ولم يعط لجلاديه فرصة احراجه امام انصاره، ووقف يستقبل حكم الاعدام على نحو يغيظ البيت الابيض والحزب الجمهوري والنظام العراقي والمحكمة ذاتها، فيما فريق من المقاومة العراقية يصعد هجماته املاً في توجيه صفعة شافية للبيت الابيض في يوم احتفاله، فأي غد ينتظر الحاكمين؟!

* كاتب من العراق